ليل وعنان

بقلم : سعد حامد

انتهى كل شيء كانه كابوس مروع .. وانفض كل من حولى .. واطفئت الأنوار .. وبقيت وحدى .. انصرف اصدقائى وزملائى ومعارفى عائدين الى بيوتهم .. ليأكلوا ويشربوا ويداعبوا أطفالهم ويضحكوا ويتذوقوا رشفات من الحب والحنان بين افراد اسرتهم ، وكان شيئا لم يحدث لعزيز لديهم ، ولعلهم سرعان ما نسوا ان حياته قد تقوضت واصبحت حطاما .. ولكن هل انتهى الكابوس حقا .. كلا والف كلا .. لقد بدا الكابوس بالأمس ، ولا أظن أننى سأستيقظ منه حتى نهاية العمر ...

كانت الليلة من ليالى الشتاء الباردة ، ولذلك فان المعزين انصرفوا مبكرين فاضطر المقرىء أن يختم قراءته ، وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة مساء ، وحمل « الفراش » الكراسى والسجاجيد ، واطفأ الكهربائى المصابيح ، وحملا اشياءهما وانصرفا ، وخيم على الشـــارع الساكن والبيت الحزين ظلام كثيف ..

والضاحية كلها .. حلوان .. ترقد فى الظلمة المعتمة ، وفى هذا الشتاء القارس يشملها سكون عميق وصمت كانها خالية من الحياة والأحياء . الظلام غامض رهيب كذلك الظلام الكثيف الذى اكتنف حياتى من الأمس .. أجل لقد انتهى كل شيء ، وانصرف كل لشأنه ، وبقيت وحيدا كسير القلب محطما ادور فى شقتى الصغيرة مضطربا يائسا تعسا كحيوان حبيس استرجع سلسلة لا نهاية لها من الذكريات ..

اننى لا اصدق ابدا ان كل شيء قد انتهى بهذه البساطة ، واننى اصبحت وحيدا ضائعا فى هـــذه الدنيا الواسعة .. لقد ماتت المراة الوحيدة التى شاركتنى حياتى ، والتى كانت كل شيء لى فى هـذه الدنيا .. ماتت زوجتى بالأمس وشيعنا جثمانها صباح اليوم الى مقرها الأخير ...

لم يعد لى بعدها شيء يجعلنى احرص على الحياة او امنحها شيئا من اهتمامى . كانت هى كل شيء فى هـــذه الحياة .. كانت اهلى واصـــدقائى واولادى ، فلم تنجب اطفـالا منذ تزوجنا منذ حوالى عشرين عاما ..

جئت من قريتى فى مستهل الشباب شابا ريفيا خجولا ، وقد غادرت تلك القرية وعيناى مغرورقتان بالدمع . كنت حزينـــا على فراق تلك الأماكن الحبيبـــة التى عشت فيها طفولتى وصباى ، ولم أكن

قد فارقت أهلى من قبل ، فكان الفراق قاسيا على قلبى فاحسست به يتمزق فى صدرى والقطار يتحرك بى مغادرا أهلى وقريتى ، ودعوات أبى وأمى ترن فى سمعى .. لكن كان لابد من هـذا الفراق لأتم تعليمى فى القاهرة .

والتحقت باحـدى المدارس الفنية المتوسطة ، وعشت فى المدينة فى بيت يملكه رجل طيب اصبح بمثابة الأب لى ، فقـد أحاطنى وزوجته الطيبة برعايتهما وحنانهما ، وعطفا على غربتى ووحـدتى فى المدينة المزدحمة ..

كنت أقضى وقتى بين المدرسة والبيت لا أكاد أعرف من القـاهرة سوى الحى الذى به مدرستى ، وكنت اقضى أوقات فراغى فى شقة صاحب البيت وزوجته الطيبة .. وهناك وقع بصرى على ابنتهما ، وتبادلنا ودا صافيا نقيا ،واحتلت الفتاة فى قلبى مكانا لم تشغله انثى من قبل ..

وعندما انهيت دراستى وتوظفت لم افكر فى مغادرة القاهرة ، وخطبت تلك الفتاة وتزوجتها .. كنت اتقاضى راتبا صغيرا ، فكانت خير زوجة رأيتها فى الوجود . كرست حياتها من أجل راحتى وسعادتى .. رضيت بالقليل ولم تشك أو تتذمر حينما كانت تمر بنـا أيام عسيرة ، وصبرت واحتملت كل جهد فى سبيل اسـعادى ، وعندما فكرت أن أواصل دراستى حتى أنال شهادة عالية شجعتنى ووقفت الى جانبى تحفزنى على المضى الى الأمام . كانت تسهر الليل الى جانبى تصنع لى أقداح الشاى والقهوة لتساعدنى على السهر ، ولم تكن تأوى الى فراشـها حتى أفرغ من استذكار كل دروسى .. كانت المصباح الذى اضاء لى طريق حياتى ..

وفزت بشهادتى العالية ، وأصبحت أحمل لقب مهندس ، وزاد راتبى ، فوفرت لها جميع أسباب السعادة .. كانت تربط بيننا عاطفة حب قوية .. كنت كل شىء فى حياتها ، وكانت كل شىء فى حياتى . كان الحب يضم عشنا الصغير تحت جناحيه ، ولكننا فى بعض الأحيان كنا نفتقد السعادة ..

كان يحزننى احيـانا أن ارى فى عينى زوجتى وهى ترمق أطفال صديقاتها أو أطفال الجيران نظرات من الحزن الدفين ، ولم أكن بحاجة الى أن تصارحنى بأن أقصى أمانيها أن يكون لها طفل ، فان الأمومة هى أعظم أمانى المرأة ، وكنت ايضـا أحب الأطفـال لكن اهتمامى بدراساتى وعملى شغل كل وقتى فلم تشغلنى هذه الفكرة ، أما هى فكانت كثيرا ما تبدو حزينة رغم ما كنا نعيش فيه من تآلف ورخاء ، لكنها طوت احزانها فى صدرها ، ولم تصارحنى بشىء ، وكان حزنها هذا يحز فى نفسى كثيرا ..

وقد ترددنا على بعض الأطباء ، وكانت نتيجة الفحص أن السبب منى ، فهونت على الأمر ، وحاولت أن تبدو غير مكترثة لكننى كنت على يقين من أنهـا كانت تتألم فى صمت ، ومرت بنا الأيام ، ولم يكن ينقصنا سوى وجود طفل يضىء بسمائه بيننا ويشع بضحكاته روح السعادة فى حياتنا ..

وصادف يوما أن دخلت على زوجتى وهى منفردة فى احـدى حجرات الشقة ، فرأيت الدمع يلمع فى عينيها ، ولما سألتها عن سبب بكائها زعمت لى أنها تحس ببعض الضيق الذى لا تستطيع أن تعزوه

الى شيء سوى اجهـــاد فى الأعصاب .. لكننى لم أصدق كلامها فقد كنت أعلم السبب الذى يحزنها ويقوض سعادتها ، وقد تكرر هذا الأمر أكثر من مرة ، فصارحتها فى حنان ورفق بأننى أعلم سبب حزنها وأننا يجب أن ننفصل ، وعسى أن يوفقها الله الى زوج آخر يمنحها الطفل الذى تصبو اليه والذى تتم به سعادتها ، لكنها أجهشت بالبكاء وهى تستمع لى وأقسمت أنهـــا لو وضع الرجال جميعا فى كفة ميزان وأنا فى كفة لكانت كفتى هى الراجحة لديها ، وأننى وحدى مصدر سعادتها وملتقى آمالها أما تفكيرها فى الأطفال فهو حماقة ستكف عن التفكير فيها من الآن ..

وقد فعلت حقا ، فلم أعد أراها دامعة العينين او حزينة ، وكانت تبدو ضاحكة سعيدة لتسعدنى ، وأصبحت تحوطنى بحنانها ورعايتها ، وكأننى طفلها الكبير،وعشنا سعداء كأننا عاشقان صغيران يمرحان فى جنة الحب حتى دهمها المرض ..

واستدعيت لها أشهر الأطباء ، وكرست كل دقيقة من وقتى لخدمتها وأشرفت على شئونها بنفسى ، واستحضرت لها الدواء من الخارج بالطائرة ، وسهرت الى جانب فراشـها الليالى الطويلة ، وقلبى يرتجف فى صدرى خوفا عليها ، ولكن الأجل المحتوم كان فوق كل شيء ..

وفى لحظة كلمح البصر انتهت حياة شريكة حياتى الغالية ..

وفجأة وجدتنىوحيدا ، ضائعا ،كسير القلب محطما ، وقد انصرف كل الناس من حولى ، والسكون عميق عميق ، والظلام كثيف يلف الضاحية كلها ، ويغمر الدنيا ، ويخيم على صدرى ..

ودرت فى الشقة أبحث عنها ، وأتطلع الى ثيابهـــا المعلقة على الشماعة ، وأشم رائحة عطرها ، وأهتف باسمها فى صوت خافت ، وأنا على يقين من أنها تسمعنى ولن تلبث أن ترد على ..

كان الليل لم ينتصف بعد .. وكانت هناك ساعات طويلة ، حتى ينبثق ضوء الفجر ، فكيف أقضى هذه الساعات .. كان لابد أن أغادر الشقة وأنطلق الى الخارج حتى لا أصاب بالجنون ..

سرت لا أعرف الى أين .. مضيت أترنح فى الطرقات على غير هدى حتى وجـــدت نفسى فى محطة القطار ، وكان على الرصيف قطار يطلق صفارته استعدادا ليغادر المحطة الى القاهرة ، ووجدت نفسى ألقى بجسدى فى احدى عرباته وهو يوشك أن يتحرك ..

لم أكن أعرف الى أين أنا ذاهب .. انما كنت أريد فقط أن أهرب من حلوان ومن مثوى ذكرياتى ، ومن نفسى .. أهرب الى أى مكان على الاطلاق ..

ألقيت بجسدى فى صالون خال ، وأسندت رأسى المحموم على مسند المقعد ، وأرخيت جفنى . لم أكن أدرى فيم كنت أفكر .. كانت تتلاحق فى رأسى أفكار سريعة مضطربة كمعتوه فقد رشده ..

انطلق القطار يشق الظلام ، ودوى عجلاته يبدد السكون السائد ، وكل ما كنت أتمناه ساعتها

وصوت دوى العجلات الرتيب يطرق سمعى أن يحملنى هذا القطار الى مكان بعيد .. بعيد جـــدا .. الى عالم خال من الألم والتعاسة والأحزان ..

كان القطار يقف فى المحطات ثم يتحرك وانا لا احس بوقوفه ولا بسيره . كنت شاردا تماما عن كل ما حـــولى ..

وانتبهت من شرودى على سيدة تدخل الصالون ، وبيدها راديو « ترانزستور » تنطلق منه الموسيقى ، وجلست امامى ، وحدست انها ركبت من احدى المحطات . كانت فى مقتبل العمر وان كان التعب يبدو واضحا على وجهها برغم المساحيق التى وضعتها عليه ، وكانت عيناها ذابلتين مجهدتين من السهر والتعب وقد تركت خصلات شعرها منسدلة على جبينها وكتفيها فى اغراء ، ولم تكن ترتدى معطفا فكانت ترتعش من البرد ، وفتحت حقيبتها وتناولت سيجارة واشعلتها ، واسترخت على مقعدها ..

كان منظرها والمساحيق الصارخة التى تلون وجهها ، وطريقة تصفيف شعرها ، والسيجارة بين شفتيها ، كل ذلك يوحى بانها من نساء الليل ، وانها عائدة الى بيتها من سهرة ما ، واشحت بوجهى الى نافذة القطار ، وطرق سمعى صوت ام كلثوم ينطلق من الراديو « الترانزستور » الذى تحمله السيدة الجالسة امامى ، وهى تغنى اغنيتها المشهورة :

كان لك معايا اجمل حكاية فى العمر كله

ونفذ الصوت الساحر الى اعماقى ، وهز نفسى هزا عنيفا ..

كان لك معـــــــايا اجمل حـــكاية فى العمر كله

ســـــنين ومـــرت زى الشـــوانى فى حبـــك انت

اجل .. لقد مرت السنين كالثوانى .. مرت يا شريكة العمر .. مرت وانتهت ..

وانهمرت دموعى .. كالفيضـــان .. ورحت ابكى وأجهش بالبكاء ، وانا لا ادرى لماذا ابكى ، ولماذا انا فى القطار فى هذه الساعة ، والى اين انا ذاهب .. نسيت كل شىء عن حياتى ولم اعد اذكر شيئا .. اصبح عقلى كصفحة بيضاء ..

انتقلت السيدة الجالسة امامى الى جانبى على الكنبة ، وراحت تسـالنى عما بى ، وهل هناك ما يؤلمنى وانا لا اجيب عليها ، وفتحت حقيبتها وتناولت منها زجاجة عطر واخذت ترش منها على وجهى وتواسينى حتى هدات لكن الدموع ظلت تسيل من عينى رغما عنى ..

قالت لى فى حنان :

ـ لماذا تبكى يا سيدى ؟ .

ـ لا ادرى .. !

ـ انك تبدو حزينا جدا . هل استطيع مساعدتك ؟

فقلت وانا لا أعى ما أقول :

ـ اشكرك . ان حزنى لا حد له . انا حزين . حزين جدا لكننى لا أعلم لماذا انا حزين .. !!

ـ هل من سبب حرك هذا الحزن فى نفسك ؟

ـ لا أدرى .. فى صدرى حزن عميق ليس فى استطاعة انسان أن يتصور عمقه . اننى حزين النفس محطم القلب أريد أن أبكى وأظل أبكى ..

ـ أمرك غريب يا سيدى . لابد أن هناك شيئا يؤلمك ..

ـ اننى وحيد يا سيدتى . هل تفهمين معنى كلمة وحيد يا بنتى . انك فى ربيع شبابك ولو كانت لى ابنة لكانت فى مثل عمرك . انا وحيد بكل ما فى هذه الكلمة من ألم ممض .. انسان وحيد فى هـــذه الدنيا الواسعة المزدحمة بملايين الملايين من البشر .

كانت السيدة الصغيرة تتطلع الى وجهى فى حيرة واشفاق ملائكى .. وأمامنا على الكنبة الأخرى كان الراديو الترانزستور ملقى هناك ، وأم كلثوم ما زالت تردد « سنين ومرت زى الثوانى .. سنين ومرت زى الثوانى » ، وكان الدمع ما زال يتجمع فى عينى ، ويتساقط قطرات ..

كنت أريد أن أتكلم .. أن انفس عن هذا الحزن القاتل الذى يجثم على صدرى . قلت للفتاة المبهوتة :

ـ أنت طبعا لم تعرفى معنى الوحدة ولم تعانيها .. الوحدة التى تجعل الانسان يحس بالغربة وهو فى حشد من الناس أو وهو سائر فى الطريق وسط الزحام . انه يحس بانه غريب .. غريب عن هؤلاء الناس جميعا .. ليس له انسان يشاركه حياته أو يحس بآلامه أو يبادله الحب أو يمنحه الحنان أو على الأقل يهبه العطف والاشفاق .. هل تخيلت وحدة المرضى فى المستشفيات حينما يهبط الليل عليهم ، وكل منهم راقد على فراشـــه وحيدا مريضا متألما بعيدا عن أسرته وأحبـائه .. هل تصورت السجين فى زنزانته يقتله الشوق الى نظرة واحدة من أطفاله الصغار أو من زوجته .. هل تصورت حياة الأطفال الأبرياء اليتامى فى الملاجىء وشوقهم الملح العـــارم الى كلمة عطف ولمسة حنان .. هل تخيلت أمسياتهم الموحشة عندما يأوى كل منهم الى فراشـــه فى العنبر الواسع الخافت الضوء وهو يحلم بعطف الأمومة وحنانها بينما يبكى قلبه فى صدره من فرط الحنين الى الأسرة والى اجتماع الشمل ثم يغلبه النوم وهـــو يتصور أمه التى لم ترها عيناه وهى تضمه الى صدرها ويتخيل أباه الذى تركه صغيرا وهو يربت عليه فى حنان وحب .. هل تصورت حياة الرهبان هناك بعيدا فى الأديرة العتيقة فى قلب الصحراء الصامتة .. هل حاولت أن تتصورى حيـاة أحدهم وهو وحيد بين أربعة جدران منقطع عن الحياة والأحياء .. هل تصورت حياة الطلبة الغرباء القادمين من بلاد بعيدة ليطلبوا العلم .. هل تخيلت حياة أحدهم الموحشة ووحدته فى حجرته العارية الباردة بلا لمسة حنان من أم رءوم أو همسة عطف من أخت حنون أو كلمة حب من أب عطوف .. هل رأيت طفلا صغيرا ضل عن والديه فى طريق مزدحم .. هل رأيت دموعه وهى تنهمر على خديه كالسيل ونظرة الهلع والحيرة فى عينيـــه .. هل تخيلت وحدته الرهيبة وهو يتلفت فى جزع باحثا عن أبيـــه أو عن أمه وسـط الزحام .. هل شـــاهدت موقف وداع بين أب وابنه على رصيف محطة القاهرة .. هل رأيت دموع الأب وهى تنحدر على وجهـــه فى صمت بينما قلبه يتمزق من الأسى ،

والوهم يصور له انه قد لا يلتقى بابنه ثانية ، والقطار ينطلق بابنه بعيدا ، والابن يلقى على أبيه وعلى بلاده الحبيبة نظرة وداع من خلف غشاوة من الدمع .. هل تخيلت احساس الابن بالوحدة وهو ينطلق بعيدا يحمله القطار الى الباخرة .. ثم الى العالم الواسع .. وحيدا كذرة تائهة فى الفضاء الفسيح .. هل تصورت كل هذا يا بنتى .. ؟

قالت لى الفتاة وقطرات دمعها تتساقط على خديها وتترك أثرا على المساحيق التى تلون وجهها :

ـ يا الهى .. ما أشد شقائك .. ان من يراك يظن أنك كغيرك من الناس تعيش الحياة بلا اكتراث لكنك انسان جريح معذب ، ويخيل الى انك تحمل على كتفيك أحزان البشر جميعا .. ولكن صدقنى ان أفكارك هى سر شقاءك .

كان الحزن يضغط على قلبى ويخنق أنفاسى ، وكنت أريد أن أتخفف قليلا من هذا الحمل الباهظ الثقيل الذى يكتم أنفاسى ، فاستطردت أقول كمن يخاطب نفسه :

ـ صدقينى أنا واحد من هؤلاء المساكين الذين حدثتك عنهم .. ليس لى أهل أو زوجة أو ولد .. لا أحد على الاطلاق .. مقطوع من شـــجرة .. اننى فى هذا العمر .. فى غروب الحيـاة .. لست أطمع فى شىء .. لست أطمع فى الحب أو فى الحنان ولكن فى العطف فقط .. العطف وحده .. تلك العاطفة النبيلة المقدسة التى يسخر منها بعض الناس ويتصورونها مرادفة للاحسان .. ذلك الذى يدفع الانسان العطوف ليقدم لسائل مسكين جائع كسرة من الخبز يدفع بهـا الجوع عن نفسه . اننى فى اشد الحاجة الى كسرة من العطف أستعين بهـــا على الحياة بقية حياتى .. كلمة عطف أو كلمـــة اشفاق لن تكلف قائلهـــا شيئا ..

كانت الفتاة تستمع لى والدمع يلمع فى عينيها .. ثم قالت فى حزن :

ـ مهلا يا سـيدى ، لست وحدك الذى يعانى من الوحدة . هناك غيرك آلاف وآلاف .. لكن يجب على الانسان أن يتغلب على الوحدة وأن يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم .. ويجب عليه أيضا أن يتعلق بشىء ما .. بأى شىء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى يتغلب على فراغ الحياة المخيف ويتخلص من الملل والسأم .. اننى أعرف أرملة عجوز مات زوجها ولم يترك لها ولدا أو بنتا فشغفت بتربية القطط وعندها أكثر من عشر قطط .. ان حياتها كلها وسعادتها تنحصر فى هذه القطط فهى ترعاها وتنظفها وتقدم لها الطعام بيديها ، وتحيط القطط بالسيدة وتجلس على حجرها وتتمسح بساقيها وتجلس على فراشها ، والسيدة تحنو عليها وتمسح على شعرها وكأنها أطفالها الأعزاء .. ماذا كانت تصبح حياتها بدون هذه القطط ؟ لا ريب أن حياتها كانت ستكون كالعدم لو استسلمت لأحزانها ولوحدتها عقب وفاة زوجها .. وأنا .. لقد مات زوجى فى ريعان شبابه فى حادث وترك لى طفلا هو كل سعادتى وكل حياتى .. اننى أعيش من أجله وأعمل وأشقى لأجعل حياته سعيدة ..

ـ ما أسعدك . ان لديك ما تعيشين من أجله . أما ذلك الذى ليس له ما يعيش من أجله فما أشقى حياته وما أقسى وحدته وعذابه ..

ـ لكن يجب عليك أن تعيش حياتك ، وليست الحياة هى جنة الفردوس التى وعد بها المتقون ولكن الانسان يستطيع أن يجعل من الجحيم فردوسا ويستطيع أيضا أن يجعل من الفردوس جحيما .. يا سيدى عش حياتك ولا تحمل هم أى شىء ودع الأمر كله لله ، فنحن لا نملك من أمر نفوسنا شيئا . وفى كل مكان تستطيع أن تجد السعادة .. فى الأكواخ والعشش يوجد أناس أكثر سعادة من بعض سكان الشقق الفاخرة والقصور الفخمة . صدقنى ياسيدى أن السعادة تنبع من أعماقنا .. نحن الذين نصنعها ولا تأتى من خارج نفوسنا ، اذا روضنا انفسنا على السخرية من الامنا ولم نعبأ بها ، استطعنا أن نصمد أمام الحيـــاة ونستشعر السعادة . اقسم لك أن الحيـــاة قد علمتنى اشياء كثيرة .. أكثر كثيرا مما يتعلم الطلبـــة فى الجامعات ومما يتعلم الناس من الكتب .

وكان القطار قد وصل محطة « باب اللوق » فغادرناه معا ، وعند باب المحطة الخارجى مددت يدى اصافحها مودعا ، فاستبقت يدى فى يدها لحظة ، وقالت لى وهى تتطلع الى وجهى فى اشفاق وحيرة :

ـ انت ذاهب الى بيتك الآن .. ؟

فقلت لها كالثمل ، وذهنى كالصفحة البيضاء تماما :

ـ بيتى .. ! اننى لا أدرى الى اين أنا ذاهب الآن . سأتجول قليلا فى شوارع القاهرة ..

فنظرت الى فى دهشة وقالت فى رقة وعطف :

ـ تتجول فى الشوارع فى هذا الوقت المتأخر . من اين أنت قادم اذن ؟

فقلت لها كمن يتكلم وهو نائم :

ـ لا أدرى من اين انا قادم . ولا ادرى الى اين انا ذاهب . سامضى الى حيث تقودنى قـدماى ..

قالت وقد اتسعت عيناها الجميلتان من الدهشة :

ـ هل تتكرم وتعرفنى بنفسك يا سيدى . أنا اسمى سعاد ..

قلت وحيرة شديدة تجتاحنى حتى جعلتنى كمن يهذى :

ـ اســـمى .. لا أدرى .. تستطيعين أن تطلقى على أى اسم يعجبـــك . حسين . على فؤاد .. أى اسم يخطر ببالك ..

قالت ونظراتها الفاحصة لا تتحول عن وجهى :

ـ انت فى حالة غير طبيعية . ولا ادرى ظروفك . انك تبدو كطفل تائه . تعالى معى ..

ضحكت فى مرارة ضـحكة كالبكاء ، فقد اعجبنى تشبيهها لى بالطفل التائه ، وقلت لها وانا احس بيد قاسية تهصر قلبى :

ـ انت محقة جدا فى قولك . انا طفل ضائع . طفل كبير فى حاجة الى الرعاية والحنان .. انا فى حاجة الى العطف .. الى كسرة من العطف ..

وشرعت ابكى من جديد .. اخذت دموعى تتساقط فى صمت ، وحاولت جاهدا السيطرة عليها ، ولكن جهودى ذهبت عبثا ..

سرت الى جانبها كطفل ساذج لا يدرى من أمره شيئا ، فقد كنت فاقد الذاكرة تماما ..

سرنا فى طرقات واسعة متألقة بالأضواء تمرق فيها عربات انيقة فارهة تحمل أناس سعداء مترفين ذاهبين الى سهراتهم أو عائدين منها ، وكانت العمارات وأضواء النيون الملونة والميادين المتألقة بالمصابيح الوهاجة تبدو لى من خلف غشاوة الدمع كأنها مغلفة بالضباب ، وخيل الى أننى أمضى فى طرقات مدينة غريبـــة لم تطأها قدماى من قبل .. كان المـــارة قليلين ، وكانوا يحثون الخطى ويحتمون بالجـدران من شـــــدة البرد ..

وغادرنا الطرقات الواسعة المتألقة بالأضواء الى طرقات أقل سعة وأقل ضوءا ثم الى طرقات ضيقة خافتة الضوء فى حى شعبى . كنا نسير صامتين ، وكان كل منا كان يعيش فى عالمه الخاص الى أن قالت صاحبتى ونحن أمام متجر بقال يقع على ناصية شارع :

ـ اسمح لى بدقيقتين أشترى بعض الخبز والطعام ..

واقبلت بعد لحظات تحمل لفافة الطعام ، واستأنفنا السير فى شوارع الحى الشعبى ثم اتجهنا من شارع الى حارة ثم دلفنا الى زقاق مترب يضيئه فانوس غاز لا يكاد ضوءه يبدد الظلام . ودخلنا بيتا صغيرا من طابق واحد ، وفتحت سعاد باب حجرة بمفتاح كان فى حقيبتها ثم دخلت وتبعتها ..

كانت حجرة واسعة من المبانى القديمة تضيئها « لمبة » صغيرة وضعت خلف ضلفة الباب المغلقة . وتقدمت سعاد ووضعت لفة الطعام وأشعلت مصباح الغاز ، فشع الضوء فى الحجرة ..

كان بالحجرة فراش ترقد عليه امرأة الى جانبها طفل ، وبها كنبتان ودولاب ومنضدة صغيرة وبضعة مقاعد ، واستيقظت السيدة على ضوء المصباح وعلى صوت دخولنا ، وكانت متقدمة فى السن ، وقالت وهى تتطلع صوبنا :

ـ جئت يا سعاد ؟ .

فاجابت صاحبتى :

ـ نعم يا أمى . ومعى ضيف كريم ..

غادرت السيدة الفراش وقامت ترحب بى ، وألقيت بجسدى على الكنبة من فرط احساسى بالتعب والانهيار ، واقتربت سعاد من الفراش وأخذت تقبل ابنها وتربت عليه وتهتف باسمه حتى أيقظته ، فأحاط عنقها بذراعيه الصغيرتين وأخذ يقبلها ثم قال لها فى صوت ناعس :

ـ هل جئت يا ماما بالشكولاتة التى طلبتها منك ..

فاجابته فى حنان :

ـ نعم يا حبيبى ..

وأخرجت من حقيبـــة يدها قطعة كبيرة من الشكولاتة قدمتها اليه ، فتناولها باسما متهللا ، ونظر صوبى متطلعا فقالت له :

ـ انزل يا فتحى سلم على عمك ..

وقفز الطفل من الفراش واقبل يصافحنى بيـــده اليسرى ، فقد كانت قطعة الشكولاتة تشغل يده اليمنى . كان فى حوالى السابعة من عمره ، وسيما ، لطيفا ، تشع من وجهه الورد براءة الطفولة الحلوة التى تأسر القلوب ..

امسكت بيده الصغيرة فى يدى ثم قبلتـــه على خده ، وأحسست بقلبى يضيق بما ملأه من حنان حتى يكاد يتدفق منه ، وشعرت ببصيص من نور الهى يتسلل الى جنبات صدرى المظلم فيشع فيه كوميض

البرق ، فرحت أملأ عينى من وجهه الملائكى الحلو وأنا فريسة لانفعالات شتى ليس لى بها عهد من قبل ..

وضعت سعاد الطعام على المنضدة الصغيرة ، وألحت على أن أشاركهم الطعام لكننى اعتذرت لها فلم أكن أشعر بأية رغبة فى الطعام ، وطلبت منها أن تعد لى ـ بعد أن تفرغ من عشائها ـ كوبا من شراب دافىء . وجلست تتناول عشاءها مع أمها وابنها ، وأنا جالس على طرف الكنبة مطرقا ، وقد حرك منظرهم فى قلبى احساسا عميقا بالحنين .. الحنين الى الأسرة واجتماع الشمل ، ولو لم أسيطر على نفسى واضبط مشاعرى لحظتها لطفر الدمع من عينى ..

ولما شربت كوب الينسون الذى أعدته لى سعاد بيديها أصرت على أن يتركوا لى الفراش لأرقد عليه لكننى صممت على أن أنام فى مكانى على الكنبة ، فنامت سعاد مع أمها وابنها على الفراش ، وتمددت على الكنبة بعد أن أحضرت لى غطاء كانت محتفظة به للضيوف ..

هل نمت الليل .. لا أدرى .. لقد ظللت بقية الليل محدقا فى السقف بعينين ذاهلتين ، وعقل كف عن التفكير ولا يعى شيئا ، وأظن أننى أغفيت عند الفجر واستيقظت على أشعة الشمس وهى تتسلل من خصاص النافذة ..

وفى الصباح أفطرنا معا .. سعاد وأمها وطفلها وأنا .. وخيل الى أننى فى وسط أسرتى التى فقدتها منذ زمن بعيد ثم التقيت بها بعد مرور أعوام طويلة فرقت فيها بيننا الأيام ، فكانت فرحتى بلقائها لا تقدر .. شعرت بسعادة لا حد لها وأنا أمد يدى باللقمة تلو اللقمة الى فتحى الصغير ، وقد شعرت أنه أحبنى وتعلق بى كما لو كان يعرفنى منذ سنوات ..

كانت سعاد تحنو على حنوا ملائكيا ، وحاولت أن تخفف الامى جهد ما استطاعت ، فكانت تخلق جوا من المرح لترفه عنى .. كان قلبها كبيرا حتى خيل الي أنه قلب يستطيع أن يحب الناس جميعا .. لقد أدركت بفطرتها السليمة أننى فى محنة عصيبة ، وأننى انسان منكود سىء الحظ ، فكرست كل لحظة من وقتها لاسعادى ..

كانت تبدو لى بريئة كطفلة .. صادقة كراهبة .. نبيلة كقديسة .. وان كنت قد حدست حقيقة مهنتها .. حدثتنى عن نفسها وعن حياتها ، وانها تعمل فى أحد المصانع لتستطيع أن تعول أمها وابنها .. لم تجرؤ المسكينة على أن تصارحنى بالحقيقة ، فاحترمت صمتها واكبرتها ، وأدركت أنها تحت ضغط الحاجة وقسوة الفقر ، وبعد أن سدت فى وجهها جميع أبواب العمل الشريف اضطرت أن تبيع شرفها من أجل لقمة العيش .. لقد حدست ذلك اول ما وقع بصرى عليها فى القطار والسيجارة بين شفتها والمساحيق الصارخة تلون وجهها لكننى صدقتها عندما زعمت لى أنها تعمل فى أحد المصانع ، وأنها تقوم بنوبة العمل ليلا فى بعض الأحيان ..

شعرت نحوها بالاحترام ، وهزتنى قوة احتمالها وتضحيتها النبيلة فى سبيل أمها وطفلها .. ومن يدرى الحقيقة .. قد تكون صادقة ، وقد أكون مخطئا فى ظنى ، والحقيقة يعلمها الله .. انها صغيرة على عاتقها حمل ثقيل ومسئولية ضخمة .. أم وابن ونفقات سكن وطعام وثياب وكفاح من أجل الحياة فى مدينة مكتظة بالناس يجرى فيها الأحياء فى سباق رهيب ، ويقاتلون بعضهم بعضا فى سبيل القوت غير مكترثين بالضعيف بل كثيرا ما يدوسونه تحت أقدامهم ، فهى معذورة ان سلكت أى طريق ..

لم أحاول أن أخدش شعورها أو كرامتها بكلمة تظهر لها أننى أعرف الحقيقة ولماذا أزيد عذابها عذابا وهى تريد أن تبدو أمامى امرأة شريفة كغيرها من النساء تكد وتعمل لتعول أمها وطفلها ..

كانت تسرد على قصتها وانا اتامل وجههـــا الشاحب الذى رسمت عليه الايام خطوطا من الشقاء ، وكانت قطرات دمعها تتساقط على خديها وهى تروى لى ذكرياتها مع زوجها قبل ان يوافيه الاجل المحتوم فى حادث فى الطريق .. قصت على ذكريات سعادتها ثم ذكريات شقائها عندما وجدت نفسها وحيدة أمام قدر معاند .. وكيف تبرمت بالحياة فى ساعات اليأس وفكرت فى الانتحار عندما سدت أمام وجهها جميع ابواب الحياة ، ولكن حبها لابنها منحها الشجاعة لمواجهة الحياة .. ثم قالت لى فى صوت يقطر حزنا وتعاســـة :

ـ لا تظن انك وحيد فى عذابك .. الدنيا مليئة بالشقاء . انا ايضا تعذبت وعانيت كثيرا لكننى قاومت واحتملت .. من اجل أمى وابنى ..

اصغيت اليهـــا وانا احس بشىء يتمزق فى صدرى .. وتصورت حياتها وشقاءها وكفاحها الرهيب فى سبيل الحياة .. ان الخطيئة التى قد تكون لوثت جســـدها لم تقو قط على ان تلوث نفسها وقلبها الكبير .. كم هى مسكينة وكم هى فى حاجة الى العطف والحنان ..

لقد تصورتها احيـــانا ونحن جالسين ناكل انهـــا ابنتى وان فتحى حفيـــدى ، واننا اسرة سعيدة لا ينقصها شىء .. وكانت تغادر البيت احيانا فى النهار .. واحيانا فى الليل .. وكنت عندما اجـــد نفسى بمفردى أصحب طفلها معى واخرج الى الطريق ، فاشترى له بعض الحلوى ثم نتجول قليلا ونعود الى البيت ، وقد تعلق بى الطفل واحبنى ، وتعلقت به واحببته ، وكأنه ابنى الذى حملتـــه وليدا ، واشرفت على تربيته ..

قضيت فى ضيافة ســـعاد اياما لا ادرى عددها بالضبط .. اكانت يومين او ثلاثة او اربعة ايام .. لم اعش مثلها من قبل .. كانت تربط بيننـــا عاطفة نبيلة مقدسة .. صلة اب عطوف رحيم بابنتـــه العزيزة .. وحتى طفلها الحبيب كان يناديني احيانا بكلمة بابا ، وكانت تلك الكلمة تطرق سمعى كاحلى نغمة سمعتها اذناى طيلة حياتى ، وكانت احلى عندى من الشهد .. كنت سعيدا غاية السعادة ، سعادة لم احلم بها يوما ما ..

حتى كان ذات يوم ..

كان الصباح مشرقا جميلا ، وقد خرجت سعاد وصحبت طفلها لتشترى له بعض الثياب ، وضقت بوحدتى فخرجت الى الشـــارع اتجول قليلا فى الشمس الدافئة . سرت فى الطرقات على غير هدى ، واحسست بالدفء يشع فى جسدى ، والسعادة تغمر صدرى ، والناس من حولى يمضون باسمين مشرقى الوجوه ، والعربات الفاخرة الأنيقة تزحم الطرقات ، والنافورات فى الميادين تطلق مياهها المتالقة فى ضوء الشمس ، ورذاذها يصفع الوجوه فى عذوبة ورقة كلمسات حنون تنبه المرء لجمال الحيـــاة وروعة الوجود ..

وقفت فى الميدان الفسيح اتامل النافورة الرائعـــة ، والحديقة المزدهرة ، بزهورها الملونة وعشبها الأخضر الزاهى ، والأطفـــال يجرون فى ممراتها المفروشـــة بالرمل الأصفر . ويتنقلون على عشـــبها الأخضر كالفراشات الملونة الجميلة . واقترب منى رجل والقى على تحية الصباح ثم مد يده وصافحنى وهو يقول وقد بدت على وجهه سمات الحزن :

ـ البقيـــة فى حياتك يا سيد احمد . والله انا فى غاية الأسف . لم اعلم بالخبر الا بالأمس فقط ..

نظرت اليه كالمشدوه ، ولم ارد عليه بكلمة .. كنت اقول لنفسى فى حيرة واضطراب :

ـ احمد .. من هذا الأحمد الذى يتحدث عنه هذا الرجل ، وعلى من يعزينى .. اننى لا اعرف هذا الرجل .. لابد أن فى الأمر خطأ ما ..

كان الرجل يتطلع الى وجهى فى اشفاق شديد ، ويهز رأسه متعجبا من ذهولى ثم استطرد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . انا اعرف ان الصدمة كانت شديدة عليك . ان زوجتك كانت كل شىء فى حياتك . الله يرحمها كانت جوهرة نادرة وكانت أكمل النساء وأفضلهن . رحمك الله يا سنية هانم رحمة واسعة وجعل الجنة مثواك ..

كنت استمع الى الرجل كمذهول فقد رشده .. وخيل الى اننى ادور فى دوامة عنيفة . احسست بدوار شديد وترنحت حتى كدت اسقط على الأرض مغشيا على .. وشيئا فشيئا بدأت ملامح الرجل تتضح لى كأنما انقشع عنها الضباب الكثيف الذى كان يغمرها ، وخيل الى اننى استيقظ من نوم عميق .. نعم .. هذا هو صديقى السيد خليل .. وسنية .. زوجتى التى رحلت عن الدنيا وتركتنى وحيدا ضائعا .. كيف نسيت كل هذا ، وما هذا الحجاب الكثيف الذى كان مسدلا على ذاكرتى ..

وقفت فى مكانى مبهوتا .. تلفت حولى كمن استيقظ لتوه من نوم عميق ، ولم اقو على ان ارد على الرجل بكلمة .. كنت نصف نائم ونصف يقظان ، فدنا السيد خليل منى وربت على كتفى وهو يقول لى فى عطف :

ـ تجلد يا سيد احمد . هكذا حال الدنيا ..

فشكرته بكلمات مضطربة متعثرة ..

انصرف الرجل وتركنى مسمرا فى مكانى تعصف بى الأفكار .. اين انا .. واين كنت اعيش فى الأيام الماضية .. انا الآن واقف فى ميدان من ميادين القاهرة اتطلع الى هذه النافورة وهذه الزهور وهؤلاء الأطفال ، ولكن اين كنت فى الأيام الماضية . انا كنت فى مكان ما .. هنا فى القاهرة .. اعيش مع سيدة صغيرة رقيقة حنون ذات قلب كبير يسع الناس جميعا ، وكان معنا طفل .. طفل صغير أحببته ما وسع قلبى أن يحب ، ولكن فى اى مكان من هذه المدينة الواسعة تعيش تلك السيدة وهذا الطفل اللذين احببتهما واحبانى ، وعشت معهما اياما لن تنمحى من ذاكرتى ما حييت ..

هل حدث هذا حقيقة ام كان حلما .. ؟ يخيل الى انه كان حقيقة واننى عشتها بكل خلجة من نفسى وكل نفس تردد فى صدرى .. ويخيل الى فى نفس الوقت انه تصورات صنعها خيالى المريض .. مجرد أحلام تخيلها عقلى المضطرب وأحالها الى حقيقة .. هل كنت مريضا فى تلك الأيام ، وكنت ضحية لتصورات حمى خبيثة .. لا .. لا .. ان ما حدث كان حقيقة .. حقيقة لا ريب فيها ، حقيقة كهذا الضوء ، وهذه الزهور ، وهذه الحديقة التى يقع عليها بصرى ..

وقفت حائرا اشحذ ذهنى واحاول جاهدا ان اذكر مكان ذلك البيت الذى عشت فيه تلك الأيام الماضية .. الأيام السعيدة التى لن اعيش مثلها ابدا ، والتى شاء القدر أن تسقط من تقويم حياتى .. كما تسقط اوراق التقويم لتأخذ مكانها فى سلة المهملات ..

كدت ابكى من الغيظ والقهر .. اما من امل .. ؟ اما من بصيص من الضوء يتسلل الى عقلى المظلم فيهدينى الطريق الى مكان تلك السيدة الطيبة والطفل الوسيم .. ؟

كان الندم يمزق قلبى ويلهبنى بسياطه .. ماذا تقول تلك السيدة الرقيقة ذات القلب الكبير التى منحتنى العطف المقدس بلا ثمن .. اتقول اننى هربت منها كاللص دون ما كلمة شكر او كلمة وداع ، والطفل الحبيب الذى لمع فى حياتى كالشهاب كيف تفسر له اختفائى فجأة وقد تعلق بى ولم يكن يفارقنى لحظة .. وكيف تصبح حياتى بدونه .. ؟

وسرت فى الطرقات على غير هدى .. كانت الشوارع غاصـــة بالمارة ، والسيارات الأنيقة والنساء الجميلات يخطرن على الأفاريز بثيـابهن الملونة من صفراء وخضراء وحمراء وبنفسجية وفى لون الفضة وفى لون الذهب ، وكأنهن زهور مختلفـــة الألوان لكل زهرة لون خاص وعطر خاص وجمال خاص ، والرجال يحثون الخطى فى حيوية وشباب يسابقون الحياة ، والشبان يسيرون جماعات يطلقون الضحكات من قلوب مرحة ، ويبتسمون للفتيـــات ويلقون فى أسماعهن كلمات اعجاب هامسة حلوة ، وواجهات المتاجر كلوحات فنية رائعـــة رسمها فنانون عباقرة ، وحوانيت الزهور تعرض زهورها الجميلة التى تستوقف البصر من خلف زجاج لامع تسيل عليه ميـــاه كمياه الغدران .. كل شىء جميل .. كل شىء يحرك القلب ويجعل الدم يتدفق حارا فى العروق ويحبب الانسان فى الحياة .. ما عداى أنا .. كنت ضائعا تلح على فكرة واحـدة ، وتكاد تدفعنى الى الجنون .. لابد أن أعثر على البيت الذى عشت فيه أياما سعيدة لا تتكرر ..

وانقضى النهـــار ، وغربت الشمس ، وأضـــاءت المصابيح ، وأنا هائم على وجهى فى الطرقات ، وقد فقدت كل أمل فى العثور على البيت ، ولم تعد قدماى تقويان على حملى من شدة التعب والاعياء ، وبدا لى من فرط الجهد العقلى الذى كنت أعانيه أن كل ما حدث كان أضغاث أحلام ..

واتجهت الى محطة قطار حلوان محزونا منهوك القوى .. هناك فى الضاحية الهادئة المنعزلة تنتظرنى وحدتى الحزينة المجدبة التى لم أستطع أن أهرب منها .. هناك أنا .. من جديد .. مرة أخرى .. أتجول فى حجرات شقتى كسير القلب محطما ..

هنا مثوى ذكرياتى ، ومقر سعادتى القديمة .. هنا طيفها ، وصدى صوتها ، وعطرها ، والماضى كله .. هنا سأعيش بقية حياتى أقتات من ذكرياتى ..

ولكن .. لقد قالت لى تلك السيدة الصغيرة الطيبـــة ذات القلب الكبير انه يجب على الانسان أن يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم ، وأن يتعلق بشىء ما .. بأى شىء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى يتغلب على فراغ الحياة المخيف ، وانها كانت تعرف أرملة عجوز تغلبت على أحزانها ووجدت سلواها فى تربية القطط والعنـــاية بها ، وأنا هل سأظل أعيش هنا على أحزانى وأقتات من ذكرياتى . ان الذكريات طعـــام الخاملين والمحزونين والضائعين .. هل ســأظل أدور فى شقتى كالطائر السجين فى القفص ..

ان الحياة حافلة بكل ما هو طيب جميل .. مليئة بالعلاقات الانسانية النبيلة .. فلماذا أظل قابعا فى جحرى أجتر أحزانى وأفكر فى نفسى فحسب .. لماذا لا أحطم هذه القوقعة التى تحصرنى فى داخلها وأخرج الى النور والهواء .. لماذا لا أذهب الى قريتى حيث نشأت ولعبت فى دورها طفلا وصبيا وترددت عليها شابا .. لماذا لا أذهب الى هناك حيث تعيش البقية الباقية من أسرتى فأملأ فراغ حياتى بوجودهم وأكرس هذه الحياة لاسعادهم واسعاد غيرهم من رفاق طفولتى وصباى بل وأهل القرية جميعا ..

لقد ملأت تلك الأرملة العجوز حياتهـــا بالاهتمام والعناية بتربية القطط .. وهبت حنان قلبهـا المتدفق للحيوان .. فلماذا لا أهب حياتى للانسان ، وأكرسها للعمل من أجله ..

وعندما غادرت بيتى فى الفجر وأنا أحمل حقيبـــة صغيرة بهـا بعض الثياب الضرورية كان الليل قد رحل بعيدا مخلفا وراءه ظلا رماديا باهتا ..

واتجهت صوب المحطة ، وركبت أول قطـــار يغـادر حلوان ، ووقفت فى النافذة ألقى نظراتى على الضاحية الساكنة ..

عندما تحرك بى القطار بدا كل شىء أمام عينى زاهيا مشرقا فى ضوء الشمس البازغة .